جدلية الـــــفكر بين المشارقة والمـــغاربة وبعض أشكـــــال المنـــــاظرة بالغرب الإسلامي.

عبد الخالق صديقي

جامعة محمد الخامس الرباط

كلية علوم التربية: الرباط، المغرب

المناظرة من الفنون الأدبية التي تحتل مكانة متميزة في الفكر والبحوث والدراسات الأدبية، وقد لقيت عناية كبيرة من لدن الباحثين اليوم كل بحســـب ميدانه. فالمناظرة كما هو معلوم إرث أدبي كبير خلفته لنا ثقافتنا العربية منذ القديم، ليظل هذا المورث مرتبطا بثقافتنا منذ بدايتها إلى اليوم، رغم أن هذا الموروث عرف حالة مد وجزر في الحقب المختلفة من تاريخنا العربي المتجذر، وذلك نتيجة لمجموعة من العوامل والأسباب، فالظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها كانت كلها عوامل مسؤولة عن ازدهار هذا الموروث أو ركوده، إلا أن تنوع مجالات المناظرة واختلاف مواضيعها جعلها حاجة ماسة في كل الفترات والحقب.

فمنذ الجاهلية كانت النقائض والمعارضـات والمفاخرات والمنافرات تمثل صـورة من صـور المناظرة، وحضـرت المناظرة في الثقافة العربية منذ القدم، واستمرت وازدهرت بين الأدباء والشعراء بشكل ملفت للنظر منذ العصر الإسلامي وما بعده، وحملت المناظرات الأدبية جمالية وقوة، كلما كانت بين المشارقة والمغاربة مما جعل لها نفس خاص ومميزات خاصة.

الكلمات المفتاحية: الفكر، المناظرة، الأدبية، المناظرة بالغرب الإسلامي، أنواع المناظرة.

Dialectique de la pense entre les orients el les ouestes et quelque formes de débat dans l'ouest islamique.

Résume:

Le terme débat est parmi les arts littéraire qui occupe une place prépondérante dans la pense et les études littéraire , cet art a trouve une très longue propagation chez les chercheurs chacun a partir son domaine , et comme nous savon le débat reste un géant patrimoine hérité de notre culture depuis longtemps, il restera donc relie de notre pense, de notre civilisation, de notre culture arabe, malgré que cet patrimoine a connus des période de croissance et autre de déclin dans les divers temps de notre histoire arabe, a cause bouceaup de facteurs, car la conjoncture économique, social et politique et d'autres facteurs sont toutes responsable de la croissance de cet patrimoine or son marasme, cependant la diversité des objets de débat la rend un besoin nécessaire, car depuis ALJAHILYA ils était les disputes et les discussions représente des formes du débat , néanmoins il faut signaler que le vrai développement de cet art il était dans la période après islamique notamment dans l époque des OUMAOUYIN et ABBASSYIN

Mots clés: pense, débat, littéraire, le débat dans l ouest islamique, les types de débat

تقديم:

تميزت المناظرة في الغرب الإسلامي بكونها جمعت بين قوة الحجة وروعة الأسلوب، مسجلة بذلك أروع الصفحات في سجل التقارع الفكري والأدبي، والفكر بالغرب الإسلامي عموما يختلف في طبيعته عن الفكر المشـرقي وذلك راجع إلى مجموعة من الأسـباب والعوامل، مما يجعل الصـراع الفكري يحتدم بين الطرفين، مشرقي ومغربي وهو الأمر نفسه الذي يجعل لكل من الطرفين خصوصيته الإبداعية، ويحرك فيه تلك النزعة التنافسـية، كل هذا وغيره جعل المناظرة بالغرب الإسـلامي تتفرد بمجموعة من الميزات والأنماط المختلفة عن نظيرتها هناك أي المشرق ونحن هنا سنحاول الوقوف عند بعض أشكال الصراع الفكري بين المشارقة والمغاربة.

لقد أعطى الجدل الفكري بين المشارقة والمغاربة نفسنا جديدا لما يسمى بالمناظرة الأدبية، هذا النوع من المناظرة الذي يختلف عن غيره من أنواع المناظرات الأخرى، حيث يسـعى إلى إثبات الجدارة والاسـتحقاق والريادة، كما يهدف إلى اكتسـاب المجد والإعجاب والثناء، ولهذا فهو يبتعد عن أسـلوب التجريح والقدح ... .

كما تختلف المناظرات الأدبية عن غيرها من المناظرات بميزة الهدوء في الغالب، وباتسـامها بروح المنافسة والرغبة في إظهار التفوق بعيدا عن الصراخ والتجريح، وقد بدا واضحا رغبة المغاربة في إظهار تفوقهم على نظرائهم في المشـرق خاصـة، إلى جانب إبراز مكانتهم الأدبية وتمكنهم من اللغة وأسـاليبها وأسـرارها... . والقارئ يسـتشـعر وهو يطالع تلك المناظرات بمتعة مردها براعة المغربي وتفننه في انتقاء الألفاظ والعبارات، واختيار الصـور والمحسـنات ... ومن هنا ننطلق من فرضـية مفادها 'المغاربة ناظروا المشارقة في جل الأشكال الأدبية، وحاولوا إبراز مدى تفوقهم وبراعتهم في معظم الأنواع الأدبية، الشعرية كانت أو النثرية، وأن المناظرة شـملت معظم الأبواب الأدبية، هذا بالإضـافة إلى حضـورها في أغلب الحوارات التي كان الغرض منها إبراز التميز على الطرف الأخر.

لتكون الإشكالية الأساس في هذا البحث تتمثل: في ما مدى تجلي المناظرة بين المغاربة والمشارقة في الأدب العربي؟ وكيف وظف أدباء الغرب الإسـلامي المناظرة لإبراز قوتهم الأدبية واللغوية على نظرائهم المشارقة؟ وهل أسعفتهم المناظرة الأدبية في ذلك؟.

1: المعارضات بداية جدل فكري ومحاولة لإبراز التفوق.

إذا كان المغربي بدأ طريقه الأدبي مقلدا ومحاكيا نظيره المشرقي كما يقال، وكما تعودنا أن نسمع وهذا أمر طبيعي بحكم السبق، إلا أن الأمر سيختلف حين يبدأ المغربي في اكتشف خصوصيته، فقد

عمل الكتاب والباحثون المغاربة على البحث عن صـــيغ فنية جديدة تمكنه من إبراز اختلافهم الفكري عن المشارقة، وتمكنهم كذلك من إبراز خصوصيتهم المعرفية والفكرية ما جعلهم يرتادون آفاق المعارضة وكلهم رغبة صادقة في إقامة الحجة.

"والمعارضة في الشعـــر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما، بأي بحر شاء وبأي قافية أراد فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها الممتازة، فينشد قصيدة من بحر الأولى وقافيتها وموضوعهـا، أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حـريصا على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يعرض لهجائه أو سبه ودون أن يكون فخره صريحا علانية"[1]

فهي تحمل في معناها المماثلة التي ترتكـز على الرغبة في المحاكاة والمقابلة وتجسد كذلك الرغبة في المنافسة وخلق التميز وهي جبلة إنسانية لا تشكل عيبا، فقـــد عارض ابن عبد الغفور الكلاعي أبا العلاء المعري في أربعة كتب، وعارض أبو المغيرة ابن حزم بديع الزمان الهمذاني، وغيرهم كثير.

لكننا نجد أن الأندلسييـــن عارضوا بصفة أكثر كبار الشعراء المشارقـــة، ومعارضتهم أي الشعراء المغاربة لنظرائهم المشـــارقة بداية فعلية لظهور جدل فكري ومحاولة لإبراز الخصـــوصـــية والتفوق وليس المعارضـــة بمفهومها القديم أي أن الإعجاب هو وحده المســـؤول عن المعارضـــة، فالأمر يختلف هنا فالمغاربة اختاروا معارضـــة المشـــارقة ليس إعجابا دائما وإنما إظهارا لتفوق والاختلاف الفكري لنظرائهم المشارقة.

وســـنحاول الوقوف هنا عند بعض المعارضـــات في محاولة منا لكشـــف ميزة المغاربة وقدرتهم الإبداعية واختلافهم الفكري عن نظرائهم المشـــارقة، ومن المعارضـــات التي تســـتحق الوقوف والتأمل والدراسة، معارضة ابن شهيد للبحتري

يقول البحتري:

مَا على الرّكْبِ من وُقوفِ الرّكـــــــــــاب في مَغاني الصّبا و رسْمِ التّصـــــــــــــابي

أَينَ أَهلُ القِبابِ بالاجَرعِ الـــــــــــفَر دِ,تَولـــَــــــــــوا، لا أينَ أهلُ القبِـــــابِ

سَقَمُ , دونَ أعينٍ ذاتِ ســـــــُــــــــقمٍ وَعَذابُ دونَ الثـــَــــــــــــنايا العِـــــذابِ

عَرَجوا , فالدُموعُ , إن ابكِ في الـــــَرب عِ , دُموعي , والاكتئابُ اكتِئابـــِــــــــــــي

وَكمثلِ الأحبابِ ,لَو يَعلمُ العـــــــــــا ذِلُ , عِندي مَنازِلُ الأحبـــــــــــــــــابِ

فإذا ما السَحابُ كانَ ركامـــــــــــــــــــــــًا فَسَقى بِالرَبابِ دار الرَبـــــــــــــــــــــــــابِ

وإذا هَبتِ الجنُوبُ نَســـــيمـــــــــــــــًا فَـــــــعَلى رَسمِ دارِها وَ الـــــــــــــــــــجنَابِ

عيّرتْني المشيب و هـــــــــــــي بدَته في عِذاري بالصّـــــــدِّ و الاجتِنـــــــــــــــــابِ

لا تَريه عارًا فما هُو بالشـــَــــــــــــــــي بِ,و لكنَّه جَلاءُ الشبـــــــــــــــــــــــــابِ

و بياضُ البازي أصْدق حُسْنـــــــــــــــا إن تأمّلت مِن سَواد الغُـــــــــــــــــــــرَابِ[2].

أما ابن شهيد فقال:

قد تركْنا الصّبا لكلِّ غَـــــــــــــــوِيّ وانسَلَخنا مِن كلّ ذام و عَـــــــــــــابِ

و انقطعْنا لوَاعِظات مَشِـــــــــــــيب آذنتْنا حَياتها بـــــِــــــــــــــــــذهَابِ

و إذا مَا الصّبا تحمل عـــــــــــــــنا فقبيحٌ بنا ارْتضاءُ التّصـــــَــــــــــــــابِي

وارتكَضنَا حتى مضَى الليلُ يســـــعَى وأتى الصُبحُ قاطِعَ الأســـــــــــــــبابِ

فكأنَ النُجومَ في الليلِ جـــــــــــيشُ دَخلوا للكـــــــــمونِ في جَوفِ غـــــــابِ

وكأَنَ الصَباحَ قانص طـــــــــــــير قَبضتْ كَفه بِرجـــــــــــــلِ غـــــــــرابِ

وفتوا سروا وقد عكف الليـــــــــــل وأرخى مغدودن الأطـــــــــــــــــــنابِ

وكأن النُجومَ لمَا هـــــــــــــــدتهم أشرقَتْ للعـــــــــــــيونِ من آدَابِـــــــي

كَـــأنَ البروق إذا طـــــَــــــــــالغتَهم أوقَدتْ في سَمائهَا من شـــــــــــهابِ"[3]

"لقد عدّ ابن شهيد الميل إلى لهو الصبا بعد أن اشتعل الرأس شيبا غوايـــة وجب الابتعـاد عنها، بيد أن المطلع على حياة الرجل يجد تناقضا بينها وبين ما ذهب إليه، ولعل التبرير الوحيـــد هو أن ابن شهيد يريد إثبات الجدارة عن طريق مخالفة فكرة البحتري لا أكثر."[4] فالغاية الأســمى مما نظمه ابن شــهيد هو المعارضـــة لقول البحتري بالدرجة الأولى وقد وُفقَ ابن شــهيد في معارضــته هاته، ولا أدل على ذلك من جمالية الأسلوب وروعة النظم وجماله الفني، فنحن لن نحاسب ابن شهيد عن خصوصيات حياته ومسار لهوه أو غير ذلك بل الأهم هي الصـــياغة الفنية والجمالية في نظمه والتي حجبت تلك الميزة وذلك التفوق الذي طالما تغني به البحتري وأمثاله.

هذا إن دل على شـــيء فإنما يدل على قدرة شـــعراء الغرب الإســـلامي على معارضـــات شـــعراء المشـرق، والنظم على طريقتهم إن لم نقل أنهم نظموا بما هو أجمل بكثير، هذا ليس تعصـبا بقدر ما هي رؤية موضـــوعية، فجمال الإبداع المغربي وقوة الرد والمعارضـــة التي أصـــبح كل شـــاعر أو مبدع بالغرب الإسلامي يمتلكها ويحسنها، أزالَ لمعان وبريق ما كان يعتبر مقدسا من قبل، بل إن ما أصبح يتوفر عليه الغرب الإسلامي من ثراء علمي ومعرفي ومن علماء كبار، كَشَف لنا بالملموس سقطات المشارقة التي لم يكون أحد يجرأ على مناقشتها.

ومن المعارضات كذلك معارضة ابن زيدون للمتنبي، التي سنحاول الوقوف عليها كذلك.

يقول المتنبي:

بِمَ التَعللُ لاَ أهلٌ وَلاَ وَطـــــنُ وَلاَ نديمُ ولَا كأسُ ولاَ ســـَـــــــــكنُ

أُريدُ مِن زَمَني أن يُبـــــــــــلغَني ماَ ليسَ يَبْلغُهُ من نَفسِهِ الزَمـــــــــــنُ

لاَ تلقِ دَهْرك إلا غيرَ مُـــكترثِ مَادَامَ يصحَّبُ فيه رُوحُكَ البـــــــــــدنُ

فَمَا يديم سُرورً ما سُررتُ بـــــه وَلاَ يرد عَليكَ الفَائتُ الحَـــــ،ـــــــزنُ

مِمَا أضَرُ بِأهلِ العشقِ أَنهـــــــــم هَووا وَمَا عَرفوا الدُنيَا ومَا فَطَـــــــــنُوا

تَفنى عُيونُهم دَمعًا وأنفُـــــــــسهم في إثرِ كُلِ قَّبيحِ وجهه حَـــــــــــسَنُ

تحملوا حملتكم كل ناجـــــــــية مكل بين علي اليوم مؤتمـــــــــــــنُ

مَا في هَوادجكُم مِن مُهجَتي عَوضُ إن متُ شَوقًا وَلاَ فيهَا لهَا تَـــــــــمنُ

مَا كُل مَا يتَمنَى المرءُ يُدركُـــهُ تَجْري الرِياحُ بِمَا لاَ تشتَهِي السُـــــــفنُ

هُو الوَفَي وَلكني ذَكَرتُ لـَــــهُ مَودَةً فهو يبلوها وَيمتحَـــــــــــــــنُ[5]

و يقول ابن زيدون معارضا:

هلْ تذكُرونَ غَريبًا عادَه الشّجَنُ مِن ذكْركُم وجَفا أجْفانهُ الوسَـــــــنُ؟

يخفي لواعجة والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر و العـــــــلنُ

يا ويْلتاهُ أيبْقى في جَوانحِـــــــــه فُؤادهُ و هُو بالأطلالِ مُرتهـَــــــــــنُ؟

و أرّق العَين , و الظلمَاء عاكِفة, ورْقاء , قدْ شفّها, إذ شَفّني حَـــــــزنُ

فبتُ أشْكُو وتَشْكُو فَوقَ أيكتِهَا وَبَات يَهْفُو ارتِياحًا بَينَنَا الغَصـــــنُ

يَا هل أُجَالسُ أقوَمًا أحبُهـــــم ؟ كُنَا وكَانوا عَلى عَهْدٍ فقد ظعـــــنُـو

أو تَحفظُونَ عُهودًا لاَ أُضيعُهَا أن الكَرامُ , بحفظ العَهدِ,تُمتَـــــحنُ

إنْ كَانَ عَادكُم عيد فرب فتى بالشوقِ قَد عَادهُ,منْ ذِكرهمْ ,حَـــزنُ

وَأفْرَدَتهُ اللَيَالي مَن أَحْـــــبتهُ فباتَ يُنْشدُهَا ,مما جنى الزَمَـــــنُ

بمَ التّعلّل؟ لا أهْل و لا وطنٌ و لا نديمٌ و لا كأسٌ و لا سَـــــكـنُ"[6]

إن الدارس لهذه المعارضـة الزيدونية للمتنبي وإن كان مشـرقيا يصـعب علية أن ينفي جمال نظم ابن زيدون وقدرته على تكسير تلك الرؤية المتحجرة التي امتدت لعقود، هذه الرؤيا التي جعلت من المتنبي جبلا يصعب الاقتراب منه فبالأحرى معارضته أو النسج على منواله.

إن ابن زيدون عارض المتنبي في هذه القصـيدة معارضـة، حسـنة حتى إننا لا نكاد نميز أيهما أجود، والملفت للنظر أن ابن زيـدون جعل من بيت المتنبي الأول خاتمة لقصيدته، وكأنه يريـد أن يشير إلى إمكانية قراءتها عكسـيا؛ أي من الأسـفل إلى الأعلى دون أن يختل المعنى أو يتغير، وهو دليل قوي على قوة فكر ابن زيدون فملكته الفكرية مكنته من النسـج بطريقة جمالية وفنية رائعة. فحضـور بديهته أثناء نسـجه للقصـيدة جعلته ينتبه إلى أبيات المتنبي بيتا بيتا، ما جعله ينسـج على منوال مخالف، بل الأكثر من ذلك أنه جعل البيت الأول من قصـيدة المتنبي بيتا أخيرا لقصـيدته، الأمر يحتمل أكثر من دلالة.

لقد اسـتطاع ابن زيدون أن يثبت جدارته وأحقيته في أن يكون هرما يضـاهي شـعره جمالية شـعر المتنبي من كل النواحي الإبداعية والجمالية والفنية ...، ولا ضـير لدينا أن نتهم بتحيزنا لشـاعر مغربي إن كان هذا الشـاعر من طينة ابن زيدون فهو الشـاعر الفذ والجوهرة المنيرة التي حجب نورها نور مصـباح المتنبي وهذا ليس تقليل من حجم شـاعرية شـاعر من طينة المتنبي لكنه إبراز لمكانة ابن زيدون فالمتنبي شغل الدنيا بشعره، وما يزال وهذا لا ينكره إلا جاحد، لكن لكل زمن رجاله ونجاح ابن زيدون في معارضته لقصيدة المتنبي هو أكبر دليل على مدى شاعرية الرجل، فقد كانت هناك محاولة معارضته لكنها فشلت، وقد ذكـر صاحب الذخيرة قصة أبي عبد الله بن شرف الذي أراد أن يعارض المتنبي في مجلس المأمـون بن ذي النون بعد أن رأى القوم أثنوا عليه، فمكث زمنا يحاول ولم يأت بشيء.

لقد تنافس ملوك الطوائف في جمع الشعراء والأدباء من حولـهم، حتى يستطيعوا تخليد أثارهم لأن تخليد الآثار لا يكون بالعمران فحســب فقد تختفي معالمه وإنما تخليد الآثار يكون بقوة الإبداع وتخليد

الإرث الأدبي والفني والعلمي ...، ولم يكن هدف ملوك الطوائف ضـــمان الريادة على الصـــعيد المغربي فحســـب بل راموا التفوق على ملوك المشـــرق أيضـــا وإبراز قوة الإبداع وقوة العقل والبديهة في الغرب الإسـلامي وإبراز خصـوصـيته كذلك، فكثيرا ما كانت تنطوي المعارضـة على بعد سـياسـي لاسـيما حين يكلف أمير أو حاكم أندلسي شاعرا بمعارضة شاعر مشرقـي، فإنه إن نسـب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي، يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق.

"قال الحميدي: أُنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق وهي:

وَمَاذا عَلَيْهم لوْ أجَابوُا فسَلّموا وَقَدْ عَلمُوا أَني المَشُوّقُ المُتيّـــمُ

سَروا و نجومُ اللّيْلِ زَهرٌ طَوالعُ عَلى أنهّمُ بِاللّيْل للنّاسِ أَنجَـــمُ

وأُخْفُوا عَلى تِلكَ المَطَايَا مَسِيرَهُم فنمّ عَليهِ في الظلامِ التبسّمُ

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها ، وقـــــال : هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وكان من الحاضرين أبو بكر يحي بن هذيل فقال بديهيا:

عَرفتُ بعرفِ الرّيح أيْنَ تيَمّمُوا و أينَ اسْتقلّ الظاعِنُون و خَيّـــــــــــــــمُوا

خلِيليّ ردّاني إلى جَانبِ الحِمَى فلسْت إلى غيْر الحِمى أتيَمّـــــــــــــــمُ

خليليّ ردّاني إلى جَانبِ الحِمى فسلتُ إلى غَيرِ الحِمى أتيمّـــــــــــــــمُ

أبيتُ سمير الفرقدين كَأنّـــــــمَا وسَادِي قُتَادٌ أو ضَجيعِي أزَقّـــــــــــــــمُ
وَأحُورُ وسنان الجفون كـَــــــأنّه قَضيبٌ مِنَ الريحانِ لدنٌ منـــــــــــــــعّمُ
نَظرتُ إلى أجْفَانهِ وإلى الهَـــــوى فأيقنتُ أنّي لستُ منهنّ أســـــــــــــــلَمُ
كَمَا أنّ إبراهيم أوّل نـَــــــــظرةٍ رأى في الدراري أنّـــــــــه سَوفُ يســـــــــــقمُ."[7]

هو إذن خير رد، فبقطعة ارتجالية اسـتطاع الشـاعر المغربي نسـج خيوط قطعة شـعرية ضـاهت القطعة الشـعرية المشـرقية التي سـرقت بال الحاضـرين بل إننا لن نبالغ إذا ما قلنا أن القطعة المغربية تميزت عن نظيرتها من حيث دقة التشبيه وجمالية الصياغة ورقة وعذوبة المعنى.

إن رغبة المغربي في إثبات تفوقه عن نظيره المشـرقي هو ما عكسـته بالأسـاس المعارضـات، فقد عكســـت المعارضـة الرغبة المغربية في إثبات التفوق على المشرق، حتى وإن كانت المناظرة تتميز وتختلف بمجموعة من المقومات عن المعارضة إلا أنها أحيانا تقترب منها حين يتوفر شرط إقحام الآخر

ومحاولة إثبـــات التفوق عليه، وإذا كانت الحجج مطلوبة في المناظرة فإنهـــا لا تكون كذلك في المعارضة لأن حجج الشاعـــــر تكمن في قدرته على صياغة الأسلوب، واستحضار المعاني، والإبحار في الخيال لإقناع المتلقي بجودة شعره.

إن هدف المغاربة لم يكن ينحســـر في معارضـــة المشـــارقة، بل الأمر كان أبعد من ذلك بكثير، فقد كان هدفهم هو إثبات التفوق ليس في الشعر فحسب بل في ضروب الأدب كله، وخير دليل على ما نقول، هو قول ابن حزم مثلا الذي يضاهي بشعراء الأندلس فحول شعراء المشرق، فيقول:" لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيص، وأحمد بن فرج ، وعبـد الملك بن سعيد المرادي، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه، وحصان ممسوح الغره."[8]

والأندلســـيون أيضـــا أهل بلاغة، يقول"ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شـــهيد ، وله من التصـرف في وجوه البلاغة وشُـعبها مقدار ينطق فيه لسـان مركب من لسـاني عمرو وسـهل،"[9] فشـأن ابن شـهيد في البلاغة شـأن كبير، وهو إلى جانب هذا ناقد مفوه يرى الأندلسـيين أصـحاب فضـل وسـبق في الشعر.

وقد وصف أبا المخشي فقال: "وأما أبو المخشي فإنه قديم الحوك والصنعـــة، عربي الدار والنشأة، وإنما تردد بالأندلس غريبا طارئا، وهو من فحــول الشعراء القدماء والمتقدمين،"[10] وكذلك فعل الشيء نفسه ابن بسام في ذخيرته، ففضـل أدباء عدوة الأندلس إلى حد كبير وهي النظرة الصـائبة التي تعترف بالمكانة الحقيقية التي أصـبح يستحقها المبدع والشاعر ببلاد الغرب الإسـلامي وليس عصـبية أو تحيزا كما يصـفه البعض.

مناظرة حول الترجيح بين البديع والصابي:

لقي بديع الزمان الهمذاني والصـــابي عناية في المشـــرق وكذلك في الأندلس، فقد قام كل من أبي محمد القاسم صاحب بونت وأبي عبد الله بن أبي الخصال للسجال حول أيهما يستحق الريادة في الأدب، فقال صاحب بونت:"البديع والصابي فرسا رهان جريا منـه إلى مـدى فأدركاه، وتناولاه من عفو فملكاه، هذا يبلغ شأوه عفوا و ذلك يجهد إليه عدوا، وكلاهما يغرف من بحر، ويقذف في بحر، فالبديـــع إذا رفع أبدع والصابي إذا صاب أصاب،"[11] فأبـــو محمد القاسم كما نرى بدأ حديثه بالاعتراف بفضل كل من الأديبين، ثم رجح كفة البديع لأنه يبلغ مراده بســـهولة، على حين لا يدرك الصِـــابي غايته إلا بعد جهد، ويضـــيف قائلا: "وكلاهما في إصابة المرمى البعيد منه سيان، غير أن البديع أعرق نزعـــا وأفصح، والصابي أوسع بابا في ميدان الإسهاب وأفسح، لا جرم أنهما فارسا الحلبة بالإجماع، وإماما القوم في حسن الاختراع."[12]

أما ابن أبي الخصال فرد عليه قائـــلا: يا سيدي الذي كرمت عناصره، وقدمت أواصره، وعذبت محانيه ومكاسره، ويعز على أن لا أيا سره، عرفك الله الحقوق، وكره إليك العقوق، وتخلصك من دواحض الحجج، ومداحض الزلج، وحملك على المهيع والمنهج، ورماك بجهينة اليقين والثلج.

الحكومة أعزك الله كما علمت صـــعب مرتقاها، بعيد ملتقاها، وقديما تجنبها الحزماء، وحاد عنها الحكماء، وقد كان أهل الجاهلية حيث لأقران يردع، ولا برهان يســتطيع، وليس إلا منتضـــى العقول ... وقفت لك منذ أيام على نفثات غر، وكلام بين البديـع والصابي حر عال تناوله خاطرك من علو، ووقفت طير القلوب منه على ثمر حلو لكنك والله يغفر لك جرعت الصابي منه صابـــا، وملأت صدور شيعه أوصـــابا فهم بين جموع منفضـــة، ودموع مرفضـــة، ونوظر كليلة ، وخواطر قليلة "ينظرُونَ من طرفٍ خَفِي،"[13] لا يستقل لهم لواء " ولا يرْتدّ إليْهِم طرْفهم و أفئِدتهُم هَوَاء."[14]

فابن أبي الخصال ينتقد صاحب بونت انتقادا شديـــدا لأنه فضل البديع على الصابي ، والمقارنة أصـــلا لا تجوز لانعدام الكفاءة بينهما، إذ يقول:"فالموازنة كالمباراة إنما تكـــون بالوفاء ومقارعة الأكفاء بالأكفاء ولذلك أبت قريش إلا أقتالها،"[15] ويضيف قائـــلا: "وأبو الفضل وإن كان كما سمي بديعا ولأخلاق البلاغة رضيعا لا يقاس بأبي إسحـــاق رأسا، ولا يجعل له سلما ولا بأسا لأنهما وإن جمعهما أصل اللسان ومزاولة الإحسان كالثريا وسهيل لا يلتقيان ولا يشتبهان فيما ينتقيان أبو إسحاق معين القول، مقـــدم على الهول يصول صوله القرم في الشول إن غضب حسبت الناس غضابا ورأيت السهول وعورا وهضابا أو رضي عاد المشيب شبابا، وفتحت السماء أبوابا،"[16] وابن أبي الخصال يتحيز تحيزا واضحا للصابي وكمـا نرى فهو يثني على الصفات الخارجية أكثر من ثنائه على كتاباتـــه، حتى ليخيل إلينا الصابي فارسا لا كاتبا، و يضيف قائلا:"وأنا لا أعدل الهزل بالفصل ولا الخيزرانة بالنصل، ولا أرغب عن الهدى ولا أضع السيف موضع الندى ولا سمعت ولا أخالنى أسأت سمعا بينهما لأحد من المتقدمين جمعا وقد ذكر الثعالبي أبو منصور وكتابه على هذا الشأن مقصور،"[17]"وفي هذا هجـوم على طريقة البديع وتلاعبـــه بالألفاظ وموضوعاته التي طرقـــها مما سماه أبو عبد الله تشخيص الأوهـام المستحيلة ولأخاليق،"[18] هذا وقـد أشار ابن أبي الخصال إلى نقطة فاصلة في تاريخ الأدب الأندلسي، [19] وهي تلك التي تتعلق بتقليد المشارقة وترسم خطـاهم قال: وهل نفس التكلف إلا ما دفع البديـع إليه، تبعناه معشر الضعفاء عليه حين عدلنا عن المنهج و دخلنا تحته.

2 – المناظرة بين النثر والشعر:

حاول مجموعة من الكتاب خلق مناظرة افتراضـــية يحاولون من خلالها تقديم حججهم وأدلتهم في التفضيل بين أشياء كما هو الشأن مثلا للمفاضلة بين النثر والشعر وإن كنت أنا شخصينا أرفض تسمية

هذا النوع من الكتابات بالمناظرات لغياب عنصر مهم من عناصر التناظر، فرغم تقديم الكاتب أسلوب حجاجي ومحاولة تقديم أدلة من هنا أو هناك إلا أن الأمر لا يعدو أن يكون بمثابة تحيز إلى الميول الشخصي، ما يهمنا نحن هو أن نقف عند الأشكال المختلفة للمناظرة ونقف بالأساس عند قوة الفكر وحضور البديهة في أي نوع من أنواع التناظر سوى كانت حقيقة أو افتراضا، ومن هنا حاولنا الوقوف عند مناظرة بين النثر والشعر فقد أجرى السرقسطي مناظرة فاضل فيها بين النثر والشعر في شكل حوار دار بين ولدي السدوسي حبيب وغريب، أما حبيب ففضل الشعر قائلا:" ألم تر أن الشعر أصعب مرتق، وأغرب منتقى، وأبرع لفظا، وأسرع حفظا، وأوسع مجازا، وأنصع إيجازا، وأحكم اربا، وأكرم أربا وأقصد معاني وأنجد مباني (وأجرى على اللسان، وأحرى بالإنسان، وأذكى رندا،وأورى زندا)، أبعث للطرب، وأذهب للكرب وهل سمعت بنثر تخلع عليه اللحون، أو تراق عليه الأعساس والصحون، فتنشق دونه الجيوب وتبرز من ضمائر الغيوب... أما النثر فعنان يرسل، وبيان ينسل ... وحوض مورود وثوب مهرود، وحمى مستباح.[20]

فللشعر فضل على النثر عند حبيب من جانب أنه صعب المرتقى لا يتيسر لأي كان، وفي الوقت نفسه هو سهل الحفظ، فهو إذن يجمع بين السهولة والصعوبة في آن واحد، بينما النثر حمى مستباح يقصده جميع الناس لسهولته، وهو كلام طويل لا إيجاز فيه ولا جمال.

أما غريب فله رأي آخر، في النثر "إن النثر لا يسر مطلبا، وادر حلبا، وأطوع عنانا وأنفذ سنانا، به تملك الممالك وتسلك المسالك، وتخدم الرياسة وتقام السياسة، وتصان الأحوال و تحفظ الأموال ...به. تتحلى الرسائل وتنتحل الوسائل فينجح الطالب والسائل .. ولو كان بالنظم شرف يكتسب أو فخار يحتسب لما رفع عنه شريف قدره، وحمى لسان الشريف عن ذكره.[21]

فغريب يرى أن الصعوبة ليست مقياسا للجودة، وعلى العكس من ذلك فإن النثر أسهل وأيسر ولذلك يقصده الناس، كما أن الدولة لا تقام إلا به إذ هو عمادها، ليس كالشعر الذي لو كان فيه خير لما ترفع عنه ذوو النفوس الكبيرة.

وطال الجدال دون أن يقتنع واحد بكلام صاحبه حتى تدخل السدوسي قائلا: "فلا تفضلا قائلا على قائل إلا بفضل فاضل وطول طائل .. و خذا في كل الأحوال بالأعدل لأقسط وميلا إلى الأسهل والأبسط،"[22] والسدوسي لم يفصل في الأمر إذ لا ناقة له في هذه المعركة ولا جمل، بل راح يشكو قلة ذات يد الأدباء" فقال: والخطاب لبنيه تشاغلتما بالآداب والمعارف وغفلتما عن الأحداث والصوارف، وأنا دونكما أرامي وأناضل وأزاحم الأيام وأعاضل، وهذا العلم قد أضاعته الضوائع وذعرت سربه الروائع ، فجادله الحاضرون وأدرك من حديثه ما أراد "[23].

ويبدو أن صاحب المقامة أثار هذا الصراع التقليدي بين الشعر والنثر، لغاية محددة هي الشكوى من حال الأديب الذي كسدت بضاعته.

3- مناظرات نحوية:

اضطلع الأندلسي في فنون الأدب كما اضطلع في اللغة وغربيها، وكانت له اجتهادات وسجلات في المسائل النحوية على غرار ما كان واقعا في المشرق، بل إن هناك من علماء اللغة الأندلسيين من تصدى للرد على نحاة المشرق وعلى نظرياتهم وقواعدهم التي استنبطوها بعد بحث وتمحيص، فابن مضاء الأندلسي مثلا ألف كتابا سماه، الرد على النحاة، وفيه تعرض للمسائل النحوية التي أثارها ابن جني و سيبويه وغيرهما منتقدا إياها حينا ومفندا حينا آخر، ومن الأمثلة على ذلك مسألة تقدير الضمائر في الأفعال، فقد "وضع النحاة أصلا هو أن الفاعل لا يتقدم على فعله، فإذا تقدم نحو: زيد قام، فلا يعربون المتقدم فاعلا، بل يعدونه مبتدأ، ويقدرون في الفعل ضميرا مستترا يكون هو الفاعل ... وتقدير النحاة للفاعل المستتر يدل على أن الفعل عندهم لا يدل بلفظه على الفاعل، إذ لو كان كذلك لما أضمروا فيه فاعلا .. . وقد ناقش ابن مضاء دلالة الفعل، وانتهى إلى أن الفعل يدل بلفظه على فاعل مبهم قال :ألا ترى انك تعرف من الياء التي في (يعلم) أن الفاعل غائب مذكر، ومن الألف في (أعلم) من أنه متكلم، ومن النون في نعلم أنه متكلمون ومن التاء في تعلم أنه مخاطب أو غائبه، ووقع الاشتراك هنا، كما وقع في (يعلم) وما أشبهه، بين الحال والمستقبل. وتعرف من لفظ (علم) أن الفاعل غائب مذكر. وعلى هذا فلا ضمير لأن الفعل يدل بلفظه عليه، كما يدل على الزمان، فلا حاجة بنا إلى إضمار. وإما على الرأي الآخر، فالأظهر أنه إضمار لما تقدم.
والنحويين يفرقون بين الإضمار والحذف ويقولون (أعني حُذَّافهم) أن الفاعل يضمر ولا يحذف، فإن كانوا يعنون في المضمر مالا بد منه، وبالمحذوف ما قد يستغنى عنه، فهم يقولون: هذا انتصب بفعل مضمر."[24]

وقد دعا ابن مضاء إلى حذف ثلاثة أمور من النحو وهي: العوامل النحوية، العلل والتمارين، مقدما آراء من تقدمه ثم الحجج التي يراها أصلح وأقرب إلى الصواب في تحد جديد للمشارقة.

ومن أمثلة المناظرات النحوية أيضا: استعمالات (ماذا): أهي للاستفهام أم للتكثير؟ " و في هذا جرت مناظرة بين الأديب البليغ الحافظ أبي بكر بن جيش وأبي زكريا يحي قال الحافظ أبو بكر:

بماذا على كل من الحق أوجبت فاعترض عليه أبو زكريا بما نصه: استعمل ماذا في البيت تكثيرا وخبرا

المعروف من الكلام استعمالها استفهاما، فأجابه بقوله: أمـــا استعمالها استفهاما كما قال فكثير .. وأما استعمالها في ألسن فصحاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد،" فالحافظ وافق أبا زكريا في أن ماذا تستعمل للاستفهام وهو أمر مفروغ منه، ولكنها أيضا تستعمل للخبر بغرض التكثير، وقد ساق إليه عدة شواهـــد كقوله تعالى: " قل انظرُوا مَاذا في السّماواتِ والأرضِ ومَا تُغنِي الآياتُ و النذُر عَن قومٍ لا يؤمِنُون"[25]

ســار أبو بكر على طريقة علماء اللغة في الاســتشــهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب وشــعرهم، وقد بدا واضحا تمكنه من الجدال ورد حجج الخصم من خلال إيراد حجج مُسَلم بها وشواهد متفق عليها.

4- مناظرة ذات طابع فكاهي:

ومن المناظرات الفكاهية الســاخرة أيضــا ما ورد في رســالة التوابع والزوابع لابن شــهيد، حيث تصــدت مجموعة من البغال تساجل أخرى من الحمير بمقطوعات شعرية، " فتقدمت بغلة شهباء تنشد شعرا لأحد البغال وهو:

عَلى كُلِ صَبٍّ منْ هواه دليلُ سَقام على حرّ الجـــوى و نُحـــولُ

ومَا زَالَ هَذا الهَوى داءً مُبرّحَا إذا مَا اعْتَرى بغْلا فلـــــيسَ يـــــزولُ

بِنفسِي التي أمّا ملاحظُ طرْفهَا فسحْر وأمَا خَدّهَا فأسِـــــــــــــيلُ

تعبتُ بمَا حَمِلتُ من ثقل حُبّهَا وإنّي لبَغلٌ للثقالِ حَمُـــــــــــــولُ

ثم أنشدت شعرا لذكين الحمار وهو:

ذَهبت بهذا الحب منذ هويـــــــث وراثت إرادَتي فلست أريـــــــثُ

كلِفتُ بإلفي منذ عِشرين حِـــجة يحُول هَواها في الحَشا ويَعيـــثُ

وَمَالي من بَرح الصَبابةِ مُخلصُ، ولا لي من فَيض السُقامِ مُغيـــــــثُ

وغير منها قلبها لي نَميـــــــــمةٍ، نَمَاهَا أحم الخصيتين خبـــــــيثُ

ومَا نِلتُ منْها نائلا غيرَ أننـــي إذا راثتْ رثتُ حيث تـــــــــــــــروثُ

فضحك زهير، وتماسكت، وقلت للمنشدة: ما هويت؟ قالت: هو هويب، بلغة الحمير. فقلت: والله، إن

للروث رائحة كريهة، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر! فقالت: فهمت عنك وأشارت إلى العانة أن دكينا مغلوبا؛ ثم انصرفت قانعة راضية.

وقالت لي البغلة: أما تعرفني أبا عامر؟ قلت: لو كانت ثم علامة! فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيســـى، والخال على خدها، فتباكينا طويلا، وأخذنا في ذكر أيامنا، فقالت: ما أبقيت منك؟ قلت: ما ترين. قالت: شب عمرو عن الطوق! فما فعل الأحبة بعدي، أهم على العهد؟ قلت: شب الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخلان؛ ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة. فتنفســـت الصـــعداء، وقالت: سقاهم الله سبل العهد، وإن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود، بحرمة الأدب، إلا ما أقرأتهم مني السلام؛ قلت: كما تأمرين وأكثر."[26]

وعلى العموم فهذا النوع من المناظرة لا يبحث عن إقناع الآخر برأي أو مذهب، كما لا يسعى للدفاع عن عقيدة أو فكرة، وإنما كان أكبر همّ أصـــحابه إقناع الآخر، وربما إجباره أحيانا، على الاعتـــــــراف بالفضل والتفوق وإثبات الجدارة، ورد التهمة خاصة إذا تعلق الأمر فيها بانتقاص القدرات اللغوية والأدبية، وقد جاء أسلوبها مشوقا، يشعر القارئ فيه بمتعة مردها جمال العبارة و قوة الحجة.

خاتمة:

إن المناظرة مقارعة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل بعيدا عن التعصـــب، مع نية الوصـــول إلى الحق أي أن تكون للمناظر نية في الوصول إلى الحق وأن لا يكون له إشكال في التخلص من وجهة نظره أو معتقده إذا تبت له بطلان ما يدعيه، كما لا يشترط أن تكون المناطرة مباشرة ولفظية وليس بالضرورة وجود أطراف عديدة داخل المناظرة فقد يحدث أن تدور رحى التناظر بين شـــخصـــين في أيامنا هذه عبر مواقع التواصل مثلا فالمناظرة مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل مع نية مسبقة في الوصول إلى الحق.

وقد ارتبطت المناظرة بحياة الإنســـان العربي عبر جميع مراحلها وتعلق الإنســـان بهذا الفن في القديم والحديث، والمناظرة مجال خصب لجدل فكري يروم إبراز التفوق والخصوصية رغم اختلاف الفترات الزمنية وهذا ما لحظناه من خلال الجدل الفكري الذي حصـــل بين المشـــارقة والمغاربة وقد لاحظنا أن المغاربة ومن خلال أشكال التناظر العديدة التي نهجوها استطاعوا إبراز خصوصيتهم وإظهار أنفسهم على أنهم الند لند مع نظرائهم المشارقة ،بل استطاعوا من خلال المناظرة إبراز تفوقهم وخصوصيتهم الفكرية.

---

[1] احمد الشايب تاريخ النقائض في الشعر العربي مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ص 71

[2] ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي دار المعارف مصر ص 86

ديوان ابن شهيد محمود علي مكي ،تحقيق : يعقوب زكي ، دار الكتاب العربي القاهرة ص 64[3]

المعارضات في الشعر الأندلسي : إيمان السيد،عالم الكتاب الحديث،ط1 ،الأردن،2006 ص 341[4]

ديوان المتنبي احمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب دار بيروت للطباعة و النشر 1983 ص 431 [5]

ديوان ابن زيدون تحقيق علي عبد العظيم دار نهضة مصر طبعة 1977ص162[6]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساني، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت لبنان ط1ج3ص154[7]

تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري : مصطفى عليان عبد الرحيم ، مؤسسة الرسالة ، ط 1ص291[8]

تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص291[9]

تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص292[10]

رسائل ومقامات أندلسية فوزي عيسي منشاة المعارف الإسكندرية 1989 ص196[11]

نفسه ص 197[12]

سورة الشورى الآية 45[13]

سورة إبراهيم الآية 43[14]

رسائل ومقامات أندلسية ص 199[15]

نفسه ص 202[16]

رسائل و مقامات اندلسية ص 204[17]

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : محمد رضوان الداية – مؤسسة الرسالة ، ط2 1993 ص،343[18]

نفسه ص 355[19]

المقامات اللزومية :أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي ،تحقيق: حسن الوراكلي،عالم الكتاب الحديث،ط2006،2ص373[20]

المقامات اللزومية ص 374/375[21]

نفسه ص378[22]

المقامات اللزومية ص 378 [23]

الرّدعَلى النّحاة، أحمد بن عبدالرحمن بن محمد،ابن مَضَاء،ابن عمير اللخمي القرطبي،أبوالعباس تحقيق احمد إبراهيم البنا دار الاعتصام الطبعة الأولى 1989 ج1ص 83ة[24]

نفح الطيب ج4ص141[25]

رسالة التوابع و الزوابع أبوعامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شُهيد الأشجعي الأندلسي تحقيق بطرس البستاني دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان ط2ج1ص145[26]